٣ ـ شعر ناجي

للأستاذ دريني خشبة

١ — فصول غير مكتوبة
٢ — قليل عن حياة ناجي وثقافته
٣ — ماذا نرجو من ناجي
٤ — بعض ما يؤخذ على ناجي

لولا خشيتنا ألا ننتهي من الكتابة عن ناجي ومن الثناء عليه ، لعقدنا فصولاً طوالاً عن غزله الرقيق العذب ، وعن فكاهته الحلوة الهادئة ، وعن سخريته اللاذعة اللاذعة ، وعن فلسفته الضاحكة المتفائلة التي تُبطن قليلاً من الشك لا يلبث أن يضيء عليه أضواء إيمانه العميق فيمحقه ، وعن وطنيته التي تبشر وتهدي وتتفتح بالآمال في غير بكاء ولا إعوال ... وعن فهم ناجي لهذه الحياة الجديدة الصاخبة التي تحترب من حولنا وتتفاعل في دؤوب وجد ... وفي بحار من الدماء أحياناً ... ولولا خشيتنا ألا ننتهي من الكتابة عن ناجي لعقدنا فصلاً طويلاً عن حياته ونشأته وتعلمه ، لنعلم مثلاً أنه ولد في آخر ليلة من ليالي سنة ١٨٩٧ ،[1] وأنه يكره أن يجعل هذه الليلة تاريخاً لمولده ، وأنه يرى من العدل أن يؤرخ لمولده بأول يناير سنة ١٨٩٨ ، لأنه لم يعش في القرن التاسع عشر إلا عامين اثنين على حد قوله ، وثلاثة أعوام حسب أصول الطرح الصحيح . ثم لنعرف أنه كان تلميذاً نابغاً ذكياً ، مثله الآن ، لأنه لا يزال تلميذاً نابغاً ذكياً ، وإن تغيرت مدرسته فأصبحت مكتبة كبيرة ، أو ثلاث مكتبات كبيرات حشد فيها خمسة أو ستة آلاف من كتب الأدب والفكر ... والطب ... وأنه حشد فيها تلك الآلاف من الكتب لا للزينة والتباهي ، ولكن للقراءة العميقة المنظمة ... وإن من هذه الكتب ، كتباً إنجليزية ـ وهي الكثرة الغالبة وأن منها كتباً فرنسية ، وكتباً ألمانية ، لأن ناجي ، كما أخبرني ، كان مولعاً بالحصول على الشهادات العلمية ، ولذلك فهو قد ثقف الإنجليزية والفرنسية والألمانية ليحصل على عدد من الدرجات العلمية من انجلترا ومن ألمانيا . وبعد أن شفي

(١) ولد الشاعر بشبرا القاهرة وهو حفيد الشيخ عبد الله الشرقاوي الكبير وتعلم في مدرستي باب الشعرية والتوفيقية ، ثم تخرج في مدرسة الطب .

— خير إن شاء الله ... هل وجدت صديقك ؟
— نعم . نعم . وجدتها ...
— من هي ؟ أصديقك هذا سيدة ؟
— سيدة بالطبع ...
— ما أكثر سيداتكم يا « رجال » السلك !
— وهل ظننته رجلاً ؟
— بالطبع . لأنك قلت صديق ولم تقل صديقتي ...
— ألا تعرف أن صديق في عرفنا معناه صديقتي ...
— لا . لم أكن أعرف ...

* * *

جلس الصديق (أ) حائراً سارحاً بعد الذي رأى عما أفرز محطة الاسماعيلية ، وتولاه شيء من التفكير والوجوم ، ثم أخرج سجارة من علبة مصنوعة كذلك من جلد ثعبان . ثم أشعلها بولاعة ذهبية بديعة كان ينقصها أن تكون مغطاة بجلد ثعبان ...

ثم تذكر أنه لم يعرض على صديقه سجارة ، فأخرج العلبة مرة أخرى وقدم منها سجارة لصديقه (ب)

ب — (وقد أراد تغيير مجرى الحديث) إنها سجارة مصرية فاخرة . لا شك أنك بمجرد وصولك أرض الوطن اسرعت فاشتريتها

— لا . لا . إنها معي من أوربا
— من أوربا ؟ كيف ؟
— لأني أدخن السجاير المصرية هناك
— شيء جميل ! ذلك لأنها مصرية
— نعم . ولأن لها ميزة الأفضلية
— (مداعباً) قل الحق . لها ميزة الظهرية ...
— (مبتسماً) ها هي ذي الحقيقة يا سيدي برزت من تلقاء نفسها . أمسرور أنت إذن ؟
ب — بل إن للسلك السياسي لسحراً

راشد رستم

ظمأه من شهادات هذه البلاد الطيبة ، شرع يروى من آدابها بلغاتها الأصلية ، ولعلى لا أبالغ إن ذكرت أن ناجى يجيد الإيطالية إلى حد ما ، وأنه يستطيع أن يقرأ الأدب الإيطالى بلغته الأصلية

كان ينبغى أن نعقد فصلاً عن ثقافة ناجى التى تزتوى بكل هذه الثقافات ، وتنهل من مناهل الآداب العالمية التى تتصل بها اتصالاً منظماً ؛ وربما كانت قد أتيحت لنا فرصة نذكر فيها طريقة ناجى فى تنظيم ثقافاته هذه كلها ، ووضع الحدود بينها حتى لا تصير خليطاً يشحب إلى جانبه لون خاصته الأولى[1] وأعنى قرضه للشعر ؛ فقد كلمنى أحد الأصدقاء عن ناجى فرأيته يزعم أنه أوشك أن ينقطع عن نظم الشعر ، إن لم يكن قد انقطع عن نظمه بالفعل . والذى أعرفه أن ناجى لا يزال بعنى كعادته ، وإن يكن قد انقطع بالفعل عن النظم الكثير بين عامى ١٩٣٤ ، ١٩٣٨ ، وذلك لأسباب لم يحن الوقت لذكرها ، أما بعد سنة ١٩٣٨ ، فقد أخذ ملك الكنار يعود إلى شدوه الأول وشجوه القديم . وليس صحيحاً أن شعر ناجى فى صباه خير من شعره الحالى ، وإن كنت قد أوردت جميع الأمثلة التى ذكرتها فى مقالى السالفين من ذلك الشعر ؛ فقد آثرت أن أفعل ذلك لكى يستطيع من يريد الرجوع إلى شعر ناجى أن يجده مجموعاً فى ديوان مستقل ، لا متفرقاً فى عشرات المجلات ، أو مختزناً فى رأس الشاعر (!!) ... وذلك أن ناجياً لا يقيد شعره فى ديوان أو كراسة ، كما يصنع عباد الله الشعراء ، وهو حين ينظم المقطوعة أو القصيدة فهو إنما ينظمها فى رأسه ... أى فى ذهنه ، وهو لا يتناول قلماً وقرطاساً ، ثم يخلو إلى نفسه كما يستوحى معظم الشعراء ملائكتهم — أو شياطينهم — ولكنه ينظم شعره كلما هاجته دواعى الشعر وهواجسه ، فهو ينظمه فى الخلوة ، كما ينظمه بين يدى الحبيب . وهو ينظمه فى الحدائق ، كما ينظمه فى زحمة الترام . وهو ينظمه نائماً أو مستيقظاً ... ونحن نأسف لأن ناجياً لم يجمع شعره منذ سنة ١٩٣٨ إلى الآن فى ديوان يكون بأيدى محبى فنه والمفتونين به من قرائه الكثيرين فى الأمم العربية . وليس يخفف من هذا الأسف أن ثلاثة أرباع هذا الشعر مسجل فى صفحات الرسالة ، لأن هذا التسجيل لا يسعف إلا الأقلين بالرجوع إلى هذا الشعر

* * *

وبعد ... فماذا فى جنة ناجى الوارفة الظلال من حَسَك وسَعدان وأشواك ؟ وماذا ينقص هذه الجنة الدانية القطوف مما فى جنات أولئك الشعراء الأمجاد : شلى ، وبيرون ، وكيتس ، ووردزورث ، وسكوتس ، وتنيسون ، وپوب ، وشيكسپير ، وبرونتج وغيرهم وغيرهم من شعراء الإنجليز والفرنسيين والألمان والإيطاليين والأسبان وقدماء اليونان ممن كانت أرواحهم تهمهم حولنا وتغمغم ، وتطل علينا من خزائن كتب ناجى ، وتكاد تُغنّى لنا وأنا أحدثه عنها جميعاً ؟ لقد أوشكت أن أترك هـــذا السؤال بين يدى ناجى ، ثم أفرغ من نقده ! لقد رأيت فوق مكتبه ديوان الشاعر الإنجليزى الشاب كيتس ، فتناولته ثم ضحكت ... ثم أخبرته ، وقد سألنى ، أننى كنت أقرأ فى هذا الديوان قبل أن ألقى ناجى بدقائق ، منظومته الرائعة الخالدة (أنديميون) ... وأننى كنت أقرأها لأهيئ من مأساة تأليفها ونقدها رداً صامتاً على نقاد هذا الزمان ، الذين يحلو لهم أن يقضوا على شعرائنا الشباب كما قضى نقاد كيتس على كيتس ، فمات فى ريعان الصبا وشرخ الشباب ضحية هؤلاء العلماء الظالمين الذين لا يرضيهم إلا أن يقذفوا فى نار الجحيم بشعرنا وشعرائنا ونقدنا ونقادنا ممن يعرضون أقلامهم وكراماتهم لدفع أذى أولئك العلماء المُتاة الظالمين عن جنود أدبنا ومعقد رجائنا فى مستقبل هذا الأدب

فهل يخشى ناجى أن ينظم لنا غرة مثـــل أنديميون ، أو درة مثل أدونيس ؟ ألا يذكر ناجى أى أثر تركته فى نفسه أدونيس التى نظمها شلى تخليداً لذكرى كيتس ، بمناسبة موته من جراء الحملة الظالمة التى شنها عليه حضرات النقاد الظالمين ؟ لقد جرب ناجى النظم ، وقد أعطانا مثالاً شائقاً فى ديوانه

(١) لا جدال فى أن خاصة ناجى الأولى هى قرض الشعر وإن كان من العدل بل من الانصاف أن نقرر أنه طبيب لا يعدل بمهنته شيئاً فى الحياة ، وأنه يملأ مكتبته بالكتب الطبية التى يدرسها فى عناية وعمق . وكان المرحوم شوقى بك يثق به ثقة لا حد لها حتى كاد يكون ناجى طبيبه الخاص ، وهكذا يصنع كثير من القاهريين . ولناجى قدرة وطلاقة عجيبة فى المحاضرة فى علوم مختلفة بلغات مختلفة .

الصغير المتواضع تحت عنوان : قلب راقصة ... تلك الأقصوصة التي تؤكد ما ذهبنا إليه من نبل شاعرية ناجي وجمال تصويره للحياة وتفجر الشعر من قلبه وتدفقه من دمه ، وقد جرب ناجي نظم الملاحم ، فأنشأ ملحمتيه الرقيقتين اللتين لم تطبعا بعد : الأطلال ، وليالي القاهرة ، وكل منهما في حوالي ألف بيت ... فهل يحسب ناجي أنه أدى واجبه نحو الشعر العربي ، والأدب المصري الحديث ، بهذا القدر الضئيل من الجهد المشترك ؟ أليس يروع ناجي ما يرى من الفراغ المفزع في دواوين شعرائنا شيباً وشباناً ؟ أيستطيع أن يقارن بين هذه الدواوين وبين تلك المئات من دواوين الشعراء الأوربيين الذين كانت أشباحهم تشرف علينا من خزائن كتبه ؟ أخشى أن يكون ناجي شاعراً أنانياً ، يقرأ كل هذا القدر من الشعر ، ولا يعطي الناس غير تلك الصبابات من القصائد والمقطوعات ... إنما تريد تجاوباً بين ناجي وبين أصدقائه بين أولئك الشعراء المحبوسين في خزائنه ... لقد أنجبت مصر ناجياً ليكون بلبلاً من بلابلها التي تأسو بغنائها أضعاف ما تأسو بطبها ... لقد أردنا أن نكتب عن ناجي فبدأنا بالكتابة عن قلبه ... فأين قصة ذلك القلب ؟ أين هذه القصة الكبيرة الطويلة ذات الصور والتهاويل التي يجيد ناجي إبداعها ؟ إن بيرون حينما أنشأ دون جوان أو تشيلد هارولد ، وشلي حينما نظم روزاليند وهيلين وقصصه الباكيات الأخر ، وشيكسبير حينما نظم فينوس وأدونيس ... وشعراء الغرب حينما نظموا قصصهم البارع العالي ، إنما كانوا ينظمون قصص قلوبهم الفتية الكبيرة النابضة ... فأين قصص قلوب شعرائنا في غير البيت أو البيتين أو القصيدة أو المقطوعة ؟ ومن غير ناجي ومن هم من طراز ناجي ممن ثقفوا أساليب الأدب الأوربي ، ونهلوا من معينه يستطيعون أن يسدوا تلك الثلمة في الشعر العربي ؟

ولا أستطيع بعد هذا أن ألاحظ شيئاً على أشعار ناجي يمكن أن يؤبه له أو يعتد به . وإن كان لا بد من ملاحظة شيء والتصريح به ، فهو هذا التهافت القليل الذي ينتاب بعض أبيات ناجي ... وهو تهافت مادي في غالب الأمر ، أي من ناحية التركيب والأسلوب . ولا شك في أن السبب في ذلك هو ما يأخذ به ناجي نفسه من طريقته العجيبة في قرض شعره ، وبالأحرى ... نظمه أشعاره بتلك الطريقة الغيبية التي لا يستعين فيها بقلم أو قرطاس . ونحن نعرف من علوم النفس والتربية أن الشيء الذي يستعمل الإنسان فيه أكثر من حاسة واحدة تكون دراسته ووعيه أكثر إتقاناً مما إذا اقتصرنا فيه على حاسة واحدة أو حاستين في الوقت الذي نستطيع أن نستعمل فيه أكثر من ذلك . فلو أن ناجياً كان يتناول قلماً وقرطاساً ليدون أشعاره وقت نظمها لاستطاع أن يعيد فيها نظره ويجيل عليها عينيه ، ولأجرى عليها عملية التجويد . وإذا هو أشرك مع عينيه أذنيه ، ثم لسانه ، أي جعل يرددها ، أو (يدندن !) بها ، إن صح أن نستعمل هذا التعبير المصري لجاءت كل أشعاره مصقولة على غرار واحد وتجنب ما يندُّ به ذهنه من الانحراف النحوي أحياناً : كقوله في رثاء المرحوم طانيوس عبده :

إجمع الآن طاقةً غضَّةَ النور تبتسمْ
أهدها روح شاعرٍ خالدٍ بالذي نظمْ

فقد عدَّى أهدى بغير لام أو إلى وهي لا تتعدى إلا بهما . وكقوله في الشك :

تغلو الحياة بها إلى أن تنتهي عند التراب رخيصة كتراب
يا هيكل الحسن المبارك ركنه الساحر النور الطهور رحاب

فقد جرَّ رحاب في غير موضع للجر ، وإن احتج بالضرورة الشعرية ، فليس بعيب الشاعر الناضج إلا أن يحتج بها . ومن ذلك استعماله دوى مكان دوَّى بالتشديد

وعلى ذكر رثاء طانيوس عبده ... لقد ذكر ناجي أبياتاً لم يكن (بليق !) أن يذكرها قط في ديوانه وإن يكن قد ذكرها في الحفلة ، ولن أزيد الطين بلة فأذكرها هنا

وإلى أن يصدر ناجي الجزء الثاني من ديوانه فنحن نحييه ونعقد عليه أحسن الآمال

دمشق

خليل مطران